الوزير المغربي (ت 418 هـ/1027 م)
بين حياته السياسية وكتابه في السياسة

الأستاذ الدكتور
جاسم ياسين الدرويش

الأستاذ المساعد الدكتورة
نضال محمد قمبر

كلية التربية للعلوم الإنسانية – جامعة البصرة

خلاصة البحث

كان الوزير المغربي عالماً شاعراً ناثراً وكتب في مختلف العلوم منها في السياسة ، وهي رسالة وجهها إلى حكام عصره ، وعند مقارنة ما ورد فيها من نصائح وإرشادات مع حياته العملية السياسية نجده وُفِقَ في بعضها فيما أخفق في الكثير منها مما أوقعه في تناقض بين ما كتبه وما كان هو عليه أثناء حياته السياسية .

وقد تطلبت المادة تقسيمه إلى ثلاثة مباحث ، تناول الأول حياته السياسية للتعرف على خطوطها العامة ودوره فيها وكيفية تعامله مع الحكام الذين عمل معهم ، دون التطرق إلى سيرته العلمية التي تحتاج إلى بحث عريض نظراً لإسهاماته في مختلف العلوم ، ثم تطرقنا في المبحث الثاني إلى الخطوط العامة ضمنها كتابه في السياسة وما ينبغي عليه أن يكون السائس للرعية ، ثم قارنا في البحث الثالث بين حياته السياسية العملية وبين أفكاره في السياسة ومدى التزامه هو فيما رسمه لحكام عصره .

المقدمة

كثيرون من كتبوا في السياسة وما ينبغي أن يكون عليه الحاكم وصفاته وكيفية تعامله مع نفسه ومع خاصته ثم مع رعيته ، ولكن ليس جميع من كتب في السياسة مارسها بل القليل منهم من جرب ذلك بنفسه ، وكان الوزير المغربي من أولئك الذين كتبوا عن السياسة إذ له رسالة في ذلك ثم هو تقلد الوزارة ومارس السياسة مع حكام عصره وتعامل معهم لمدة ثمان وعشرين سنة حتى وفاته سنة 418 هـ/ 1027 م ، ومما يثير الانتباه أن الوزير المغربي عمل عند حكام متباينين في اتجاهاتهم وميولهم ، فنراه في بلاط الدولة الفاطمية الإسماعيلية ثم خدم البويهيين في بغداد والعقيليين في الموصل وبني مروان الكردي في ديار بكر وميافارقين .

وفي البحث حاولنا أن نسلط الضوء في المبحث الأول على حياته السياسية للتعرف على خطوطها العامة ودوره فيها وكيفية تعامله مع الحكام الذين عمل معهم ، دون التطرق إلى سيرته العلمية التي تحتاج إلى بحث عريض نظراً لإسهاماته في مختلف العلوم ، ثم تطرقنا في المبحث الثاني إلى الخطوط العامة ضمنها كتابه في السياسة وما ينبغي عليه أن يكون السائس للرعية ، ثم قارنا في البحث الثالث بين حياته السياسية العملية وبين أفكاره في السياسة ومدى التزامه هو فيما رسمه لحكام عصره .

المبحث الأول : حياته السياسية

هو أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن محمد بن يوسف بن بحر بن بهرام بن المرزبان بن ماهان بن باذان بن ساسان بن الحرون بن بلاش بن جاماس بن فيروز بن يزدجر بن بهرام جور المعروف بالوزير المغربي [1] ، واختلف في نسبته للمغرب ، فأشارت معظم المصادر أنه ليس من أهل المغرب وإنما كان جدّه علي بن محمد بن يوسف في بغداد على ديوان الغرب فنسب إلى ذلك فهو فارسي الأصل عراقي الموطن [2] ، إلا أن ابن خلكان اعترض على ذلك قائلاً : (ورأيت في بعض المجاميع أنه لم يكن مغربياً ، وإنما أحد أجداده ، وهو أبو الحسن علي بن محمد كانت له ولاية في الجانب الغربي ببغداد ، وكان يقال له : المغربي ، فأطلق عليهم هذه النسبة ، ولقد رأيت خلقاً كثيراً يقولون هذه المقالة ، ثم بعد ذلك نظرت في كتابه الذي سماه : أدب الخواص ، فوجدت في أوله : وقد قال المتنبي : وإخواننا المغاربة يسمونه المتنبه ، فأحسنوا) [3] أي أنه مغربي حقيقة ، وقد علق إحسان عباس على قول ابن خلكان بقوله : لم يكن لهذا التردد أي ضرورة لاسيما وأن الوزير المغربي نفسه صريح في تفسير نسبه إذ قال : إن جده علي بن محمد كان على ديوان الغرب فنسب إليه [4] .

كما ذكر الوزير المغربي أصله صراحة بقوله : إن سلفه كانوا في البصرة ثم انتقلوا عنها أيام البريدي [5] إلى بغداد ، فعين جده أبو الحسن علي بن محمد على ديوان الغرب فنسي إليه ، قال : وولد جدي الأدنى في بغداد بسوق العطش [6] ونشأ بها وخدم ابن رائق [7] ثم انتقل جده وأبيه إلى خدمة الاخشيد [8] في مصر وبعد وفاته انتقلوا إلى حلب وخدموا سيف الدولة الحمداني [9] ونالا عنده

---

[1] – ياقوت ، معجم الأدباء ، 162/3 ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، 2532/6 ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 172/2 ؛

[2] – ابن هبة الله العلوي ، المجموع اللفيف ، ص 13 ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، 2532/6 ؛ المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، 277/3 .

[3] – وفيات الأعيان ، 177/2 .

[4] – الوزير المغربي العالم الشاعر الناثر ، ص 7–8 .

[5] – البريدي وهو لقب تلقب به الأخوة الثلاثة أبو عبد الله أحمد وأبو يوسف يعقوب وأبو الحسين علي حيث تمكن هؤلاء الأخوة من الارتقاء في المناصب الإدارية والحصول على الثروة والشهرة الواسعة مكنتهم فيما بعد من احتلال البصرة سنة 325 هـ/936 م وإقامة إمارة لهم فيها حتى سنة 336 هـ/947 م ، ينظر :

[6] – سوق العطش وهو من محال الجانب الشرقي من بغداد ، ينظر : ياقوت ، معجم البلدان ، 284/3 .

[7] – هو أبو بكر محمد بن رائق كان أبوه من مماليك الخليفة المعتضد ، ولي شرطة بغداد للخليفة المقتدر ثم ولي البصرة وواسط ثم ولي الشام أيام الخليفة المتقي ، وتوفي سنة 330 هـ/ 941 م ، ينظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، 518/11 .

[8] – هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن طغج الفرغاني الاخشيدي ولاه الخليفة المقتدر مصر سنة 321 هـ/ وبقي بها حتى وفاته سنة 335 هـ/ ، ينظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 58/5–59 .

[9] – هو أبو الحسن علي بن محمد بن حمدان التغلبي الملقب بسيف الدولة ملك حلب سنة 333 هـ/ 944 م وتوفي سنة 356 هـ/ 966 م ، ينظر : ابن خلكان وفيات الأعيان ، 301/3–306 .

حظوة ، وهنا اختلفت المصادر في مكان ولادته فذهب عدد منها إلى أنه ولد في مصر سنة 370 هـ/980 م [10] ، فيما ذهب ابن العديم إلى أنه ولد في حلب في السنة أعلاه [11] ، رجح إحسان عباس ولادته في حلب معتمداً على قرائن وروايات وردت عند ابن العديم [12] ، ونحن نرجح ذلك أيضاً لأن أباه لم يدخل مصر أيام الفاطميين إلا سنة 381 هـ/991 م [13] .

ثم حدثت بين أبيه وسعد الدولة بن سيف الدولة (356-381 هـ/ 967- 991 م) [14] جفوة اضطر فيها إلى مغادرة حلب وترك عائلته فيها وأراد اللحوق ببغداد فلما وصل الانبار وجد العراق مضطرباً فتوجه إلى مصر ولقي بها حظوة عند الخليفة العزيز الفاطمي (365-386 هـ/975-996 م) فاستقدم عائلته إلى هناك [15] ، وكان دخوله مصر في جماد الأولى سنة 381 هـ/991 م [16] (وبلغ عند العزيز مرتبة عظيمة حتى صار يستشيره في عظائم الأمور ، ويأتمنه على الأسرار) [17] ، وقيل إن أباه وزر للخليفة العزيز [18] .

وعندما أراد الخليفة العزيز ضم حلب إلى الدولة الفاطمية راسل غلام طامح هناك يدعى بكجور وضم إليه ابن المغربي الأب للمشورة والكتابة ، فأشار عليه بالزحف عليها وأن الخليفة العزيز سيرسل إليهم التعزيزات من مصر ، إلا أن بجكور فشل في أخذ حلب كما لم تصل تعزيزات من مصر ، فاستدعى بكجور ابن المغربي الأب وقال له : (غررتني وأوهمتني أن العزيز يجئني ويعاونني وأن العرب تخلص لي وتناصحني ، وأن العرب توافيني ويستأمنوا إليّ وما كان لشيء من ذلك حقيقة فما الرأي الآن فإن بازائنا عسكراً عظيماً لا طاقة لنا به ، قال : صدقت أيها الأمير فيما قلته ووالله ما أردت غشك ولا فارقت نصحك والصواب مع هذه الأسباب العارضة أن ترجع إلى الرقة وتكاتب العزيز بما عاملك به نزال وتعاود استنجاده فإنه ينجدك ويستظهر في أمرك ، وكان في عسكر بكجور قائد من قواده يجري مجراه في التقدم يعرف بابن الخفاني فقال له وقد سمع

---

[10] – ابن الجوزي ، المنتظم ، 185/15 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، 617/15 ؛ ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، 266/4 ؛ الداوودي ، طبقات المفسرين ، 155/1 .

[11] – بغية الطلب ، 2532/6 .

[12] – الوزير المغربي ، ص 18 .

[13] – ابن القلانسي ، تاريخ دمشق ، ص 67 ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 450/7 ؛ النويري ، نهاية الأرب ، 158/26 .

[14] – هو أبو المعالي شريف سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني وتولى حكم الدولة الحمدانية في حلب بعد وفاة والده سنة 338 هـ/ وتوفي سنة 381 هـ/ ، ينظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 406/3 .

[15] – ابن العديم ، بغية الطلب ، 2535/6 – 2536 ؛

[16] – ابن الصيرفي ، الإشارة إلى من نال الوزارة ، ص 47 ؛ ابن القلانسي ، تاريخ دمشق ، ص 67 ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 450/7 ؛ النويري ، نهاية الأرب ، 158/26 .

[17] – النويري ، نهاية الأرب ، 158/26 .

[18] – ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، 266/4 .

ما جرى بينه وبين ابن المغربي فقال : ما عندك فيما قاله وأشار به ؟ فقال له : هذا كاتبك يقول إذا جلس في دسته الأقلام تنكس الأعلام فإذا حقت الحقائق أشار علينا بالهرب وإذا هربنا فأي وجه يبقى لنا عند الملوك وزوجة من يهرب اليوم طالق ليس إلا السيف فأما لنا وأما علينا) [19] .

فلما سمع ابن المغربي ذلك خاف على نفسه فأومأ إلى بدوياً أن يحمله إلى الرقة وبذل له ألف دينار تاركاً بكجور في موقف محرج إذ لم يستطع مواجهة قوات سعد الدولة بن سيف الدولة فانهزم ثم قبض عليه وقتل ، كما أن سعد الدولة هو الآخر توفي سنة 381 هـ/ وخلفه ابنه أبو الفضائل سعد الملقب بسعيد الدولة (381-392 هـ/ 991-1001 م) [20] .

وبعد مقتل بجكور فرّ ابن المغربي إلى الكوفة ، وعندما سمع بوفاة سعد الدولة الحمداني راسل الخليفة العزيز وهون عليه أخذ حلب ، فأرسل العزيز قائده منجوتكين وضم إليه ابن المغربي الأب ، لأنه كان كاتب منجوتكين ومن خواصه [21] ، ومن جانبه قام أبو الفضائل الحمداني بمراسلة إمبراطور الروم لمساعدته ضد الجيش الفاطمي وبذل له المال ، إلا أن منجوتكين وابن المغربي تمكنا من هزيمة جيش الروم ثم عادا وحاصرا حلب ، وعندما أيقن أبو الفضائل سعيد الدولة الحمداني بالهزيمة وأنه لا طاقة له بالجيش الفاطمي قام قائد له بمراسلة الوزير المغربي وبذل له المال على أن يشير على القائد الفاطمي منجوتكين بالرجوع إلى دمشق ففعل ، ولما علم الخليفة العزيز بذلك استاء فاستغل أعداء ابن المغربي ذلك فأوغروا ضده فعزله وولى مكانه صالح بن علي الروذباري [22] .

وأشار إحسان عباس إلى أن ابن المغربي بعد عزله من قبل الخليفة العزيز لم يطل ذلك الإقصاء فعاد إلى سابق عهده من الحظوة أيام العزيز وأشار إلى نص النويري الذي ذكر فيه أنه بلغ عند العزيز مرتبة عظيمة حتى صار يستشيره في عظائم الأمور [23] ، إلا أننا نرى أن تلك المكانة التي بلغها ابن المغربي الأب عند الخليفة العزيز كانت قبل إرسال جيش منجوتكين ، يتضح ذلك من رواية النويري أعلاه [24] ، ويبدو أن ابن المغربي الأب توارى عن الأنظار مدة حتى وفاة الخليفة العزيز الفاطمي سنة 386 هـ /996 م [25] .

---

[19] – ابن القلانسي ، تاريخ دمشق ، ص 61 .

[20] – ابن القلانسي ، تاريخ دمشق ، ص 61-64 .

[21] – ابن الصيرفي ، الإشارة إلى من نال الوزارة ، ص 47 .

[22] – ابن القلانسي ، تاريخ دمشق ، ص 70-71 ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 450/7 ؛ وصالح بن علي الروذباري من كبار قواد الدولة الفاطمية نقم عليه الخليفة الحاكم الفاطمي وقتله سنة 400 هـ/ ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، 83/2 .

[23] – الوزير المغربي ، ص 17 .

[24] – نهاية الأرب ، 158/26 .

25 – ابن القلانسي ، تاريخ دمشق ، ص 74 .

ولم تشر المصادر المتوفرة إلى نشاط له بعد ذلك حتى سنة 390 هـ/999 م أيام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (386-411 هـ/ 996-1030 م) إذ أشار ابن الصيرفي إلى أن ابن المغربي وابنه أبا القاسم الحسين كانا من المقربين من الخليفة الحاكم الفاطمي ومن جلسائه قال : (واتصل بعد ذلك بخدمة الإمام الحاكم فكان هو وولده أبو القاسم من جلسائه وكانت له وجاهة وتقدمة منزلة) [26] ، وهذا يعني أن أول ظهور رسمي لأبي القاسم الوزير المغربي كان في بلاط الخليفة الفاطمي الحاكم ، وأشار الذهبي إلى أن الوزير المغربي كان قبل خروجه من مصر ناظر ديوان الزمام [27] بها [28] .

ويرجح إحسان عباس أن هذه الوظيفة نالها الوزير المغربي بعد خطبة ألقاها في حفل استقبال الخليفة الحاكم لوفد من بلاد الروم سنة 391 هـ/1000 م [29] ، وأهم ما في الخطبة هو أن الوزير المغربي في نهايتها تحدث عن نفسه وبان فيها عن طموحه إلى منصب أعلى مما هو فيه كأن يكون قائداً للجيش إذ فقال : (ثم إني يا أمير المؤمنين عبدك ووليّك ابن أوليائك ، إن شئت كنت جمرة تسعر في صدورهم ، أو سحابة تفيض على القتال) [30] ، أو كاتباً للخليفة أو خطيبه الخاص أو سفيره إلى الملوك إذ قال : (وإن شئت فأقمني بحضرة سرير عزّك خطيباً بنعم الله عليك ، وناظماً بسيرة أيّامك ، وسناناً تدرأ به نحر كلّ خطيب أشرق في ملك غير ملكك ، فو الذي أقامك بالحقّ إماماً ، ما سرّني بنظرة نظرتها إليك ملء الأرض ذهباً ، ولئن كنت نعم الإمام ونعم الراعي) [31] ، والراجح أن الخليفة الحاكم جعله يعمل في ديوان الخراج مع منصور بن عبدون النصراني [32] حتى سنة 399 هـ/1008 م ، إذ أشار المقريزي إلى أن ابن عبدون انفرد في ديوان الخراج [33] ما يعني عزل الوزير المغربي عن وظيفته .

وهكذا بدأت المواجهة بين رجال بلاط الخليفة الحاكم الفاطمي لاسيما بين الوزير المغربي وأبيه من جهة وبين النصارى وعلى رأسهم ابن عبدون الذي حلّ مكان الوزير المغربي في الديوان [34] ،

---

26 – الإشارة إلى من نال الوزارة ، ص 47 .

27 – قال الخزاعي ديوان الزمام : (الكتاب الذي تدوّن فيه المعاني والعلوم وتبيّن ، لتعلم ولتحفظ في كلّ وقت ، فهو مدون لتقييد الأشياء والمعاني التي يخشى عليها النسيان) ، تخريج الدلالات السمعية ، ص 248 .

28 – تاريخ الإسلام ، 12/9 .

29 – الوزير المغربي ، ص 36 .

30 – الداوودي ، كنز الدرر ، 312/6 .

31 – الداوودي ، كنز الدرر ، 312/6 .

32 – وهو أحد كتاب الدوواين في مصر أيام الدولة الفاطمية قتله الخليفة الحاكم سنة 401 هـ/1010 م ، ينظر : المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، 84/2 -85 .

33 – اتعاظ الحنفا ، 76/2 .

34 – ابن القلانسي ، تاريخ دمشق ، ص 100 .

وقد نجح الوزير المغربي وأبوه أول الأمر في إيغار صدر الخليفة فقبض على بعض الكتاب النصارى وقتلهم شر قتلة إذ (أمر الحاكم بأن يضرب كل واحد منهم خمسمائة سوط فإن مات رمي به للكلاب وإن عاش أعيد ضربه إلى أن يموت) [35] .

ولا شكك فإن ذلك أثار حفيظة ابن عبدون النصراني الذي وصفه ابن القلانسي بأنه كان (رجلاً نصرانياً خبيثاً جلداً) [36] ، فأخذ يكيد ببني المغربي ويحث الخليفة الحاكم على الإيقاع بهم حتى نجح في ذلك ، قال ابن القلانسي إن : (منصور بن عبدون الناظر في الدواوين بمصر لم يزل بنو المغربي المقدم ذكرهم مستمرين على الوقيعة فيه والتضريب بالسعاية عليه وإفساد رأي الحاكم فيه وهو يعتمد فيهم مثل ذلك ويغريه بهم ويحمله على قتلهم حتى تقدم إلى جعفر الصقلبي وكان قد قام مقام مسعود السيفي [37] في القتل أن يحضر علياً ومحمداً ابني المغربي ويدخلهما الحجرة ويضرب أعناقهما ففعل ذلك ، ثم أمره أن يحضر أبا القاسم الحسين بن علي المغربي وأخويه ويقتلهم ، فأما الإخوان فإنهما أخذا بعد ثلاثة أيام وقتلا ، وأما أخوهما أبو القاسم الحسين بن علي فاستتر وأعمل الحيلة في النجاة وهرب مع بعض العرب) [38] ، وكان ذلك في الثالث ذي القعدة من سنة 400 هـ/1009 م [39] ، وذكر الفارقي إلى أن الخليفة الحاكم الفاطمي قبض أيضاً على الوزير المغربي ووضعه في سجن خزانة البنود إلا أنه تمكن من الهرب منها ، قال : (إنه ما خلص منها هارب غيره) [40] .

وأشار الفاسي إلى أن الخليفة الحاكم الفاطمي إنما غضب على الوزير المغربي (لأنه اتهمه أنه يضرب بينه وبين وجوه دولته) [41] ، ويرى إحسان عباس إلى أن ابن عبدون لم يكن السبب الوحيد الذي جعل الخليفة الحاكم يوقع ببني المغربي ذلك أن طول العشرة جعل بنو المغربي ذوي إدلاء على الخليفة مما جعل الوشايات فيهم سهلة القبول ، فضلاً عن الغلو في الطموح الذي كان يحمله الوزير المغربي والتي كان يصرح بها عند الخليفة جعلت الأخير يضيق بها ذرعاً ، يضاف إليها ما اتصف به الخليفة من التقلب وسرعة الانتقال من حال إلى حال جعل أي وشاية مهما كان حظها من الصدق تؤدي بحياة ذلك الشخص [42] ، ويتضح طموح الوزير المغربي وإدلائه على

---

[35] – ابن القلانسي ، تاريخ دمشق ، ص 100 .

[36] – تاريخ دمشق ، ص 100 .

[37] – هو أبو الفتوح مسعود الصقلبي أحد حجاب الخليفة الحاكم الفاطمي ويعرف بصاحب الستر ثم عين على الشرطة ، ينظر : المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، 30/2 ، 36 .

[38] – تاريخ مشق ، ص 101 .

[39] – الداوودي ، طبقات المفسرين ، 157/1 .

[40] – تاريخ ميافارقين ، ص 129 .

[41] – العقد الثمين ، 70/4

[42] – الوزير المغربي ، ص 38 .

الخليفة من خطبته المارة الذكر والتي أشار فيها على الخليفة أن يستخدمه في أكثر من موقع في الدولة .

بقي الوزير المغربي مختفياً في مصر مدة ثمانية أيام حتى تمكن من الخروج منها في زيّ جمّال برفقة قافلة من الأعراب وكان ذلك في الثاني عشر من ذي القعدة [43] ، وهنا بدأت مرحلة جديدة من حياته بعد الفاجعة الأليمة التي حلت بأبيه وأخوته وعمّه على يد الخليفة الحاكم الفاطمي ، وشبه ما حدث لأهله علي يد الخليفة الحاكم بوقعة الطف التي استشهد فيها الإمام الحسين (ʊ) إذ قال :

إذا كنت مشتاقاً إلى الطف تائقاً إلى كربلا فانظر عراص المقطم

تجد من رجال المغربي عصابة مضرجة الأوداج تقطر بالدم

فكم خلفوا محراب آي معطلاً وكم تركوا من ختمة لم تتمم [44]

وما أن غادر مصر حتى توجه إلى الرملة [45] واستجار بحسان بن المفرج بن دغفل بن الجراح الطائي [46] الذي كان هو وأبوه على إمارة طيء في بلاد الشام ، وما أن اطمأن هناك حتى أخذ يخطط للانتقام من الخليفة الحاكم الفاطمي ثم خطط لإيجاد خلافة جديدة في بلاد الشام ، قال الذهبي : (وبقيَ إِلْبا عَلَى الحاكم يسعى في زوال دولته بما استطاع) [47] ، من جانبه أرسل الخليفة الحاكم الفاطمي قائده يارختكين في قوة إلى الرملة للقبض على الوزير المغربي فأشار على الأخير بني الجراح مواجهة القائد الفاطمي وفعلاً تمكن حسان بن الفرج من الإيقاع بالقوة الفاطمية وأسر قائدها وحرمه وعومل معاملة سيئة ، وعندما سمع الخليفة الفاطمي بذلك استاء وأرسل إلى المفرج الطائي بانتزاع يارختكين من يد ابنه حسان ووعده بخمسين ألف دينار ، وهنا خاف الوزير المغربي من نجاح خطة الخليفة الحاكم بالتفريق بين الولد وأبيه فاجتمع بحسان الطائي وقال له : (إن والدك سيركب إليك ولا يبرح من عندك إلا بيارختكين ، ومتى أفرجتم عنه عاد إلى الحاكم فرده إليكم في العساكر التي لا قبل لكم بها ، فلما سمع حسان ذلك وكان في رأسه نشوة ، أحضر يارختكين بقيوده فضرب عنقه صبراً ، وأنفذ رأسه إلى المفرج) [48] .

---

[43] – الداوودي ، طبقات المفسرين ، 157/1 .

[44] – ابن الصيرفي ، الإشارة إلى من نال الوزارة ، ص 47 ؛ إحسان عباس ، الوزير المغربي ، ص 154 .

[45] – الرملة مدينة عظيمة بفلسطين بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر يوماً ، ينظر : ياقوت ، معجم البلدان ، 69/3 .

[46] – حسان بن المفرج بن دغفل بن الجراح الطائي ، كان أبوه على إمارة في بلاد الشام تولى الإمارة بعد وفاة أباه سنة 404 هـ/ واستمر في الحكم حتى وفاته سنة 420 هـ/1029 م ، ينظر : ابن العديم ، بغية الطلب ، 2239/5 – 2241 .

[47] – تاريخ الإسلام ، 12/9 .

[48] – الروذراوري ، ذيل تجارب الأمم ، ص 235 ؛ ينظر أيضاً : ابن العديم ، بغية الطلب ، 2240/5 .

وهكذا وصلت علاقة بنو الجراح مع الخليفة الحاكم الفاطمي نقطة اللاّرجعة ووجدوا أنفسهم في مواجهة مع الدولة الفاطمية أولاً ثم بدون غطاء شرعي لحكمهم ، وهنا استغل الوزير المغربي الفرصة وقال لحسان بن المفرج : (الآن قد قطعت ما بينك وبين الحاكم ، ولم يبق لصلحك معه موضع ، ولا لك إلى الرجوع إلى طاعته مكان ، فقال له : وما الرأي ؟ قال : هذا أبو الفتوح [49] أمير مكة والحجاز ، في بيته وفضله وكرمه بمكان رفيع ، تنصبه إماماً وتقوم معه على الحاكم) [50] ، وكانت خطة الوزير المغربي إيجاد بديل عن الفاطميين من آل البيت أنفسهم يمكن أن يواجههم به ، فأمره حسان بالتوجه إلى مكة .

وفي مكة التقى الوزير المغربي أميرها أبا الفتوح الحسني العلوي وأطمعه بالخلافة وضمن له طاعة أمير عرب الشام حسان الطائي ، قال الفاسي : (فلما وصل إليه أطمعه في الرئاسة والخلافة ، وضمن له الوفاء بما بذله حسان بن المفرج من الطاعة له ، فشكى أبو الفتوح إلى أبي القاسم قُلّ ما بيده من المال ، فأشار عليه الوزير أبو القاسم بأخذ ما في خزانة الكعبة ، من المال ، وما عليها من أطواق الذهب والفضة ، وضربه دراهم ودنانير ، ففعل ذلك) [51] ، كما وافق ذلك أن رجلاً ميسوراً توفي بجدة وأوصى لأبي الفتوح (من تركته بمال ، لكي يسلم الباقي لورثته ، فمد يده إلى التركة فاستوعبها بمشورة ابن المغربي عليه بذلك) [52] ثم دعا أبو الفتوح العلوي إلى نفسه بالخلافة وتلقب بالراشد بالله [53] ، وخرج أبو الفتوح العلوي وبنو عمّه وعبيده بصحبة الوزير المغربي إلى الشام حتى وصلوا الرملة فبايعه بنو الجراح بالخلافة وقبلوا الأرض بين يديه وتوافد عليه الناس للبيعة [54] .

لما وصل الخبر إلى الخليفة الحاكم هاله ذلك وأدرك أن ذلك كلّه من تدبير الوزير المغربي فأعمل الحلية في التفريق بين المتآلبين عليه لاسيما بني الجراح أصحاب النفوذ والقوة ، فكتب إلى (آل حسان الطائي متلطفاً ، وبذل لهم أموالاً جزيلة ، وكتب إلى ابن عمّ أبي الفتوح فولاه

---

[49] – هو الحسن بن جعفر بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، ولي مكة سنة 384 هـ/994 م وتوفي سنة 430 هـ/1028 م ، ينظر : الفاسي ، العقد الثمين ، 69/4- 79 ؛ عبد الغني ، تاريخ أمراء مكة ، ص 411- 419 .

[50] – الفاسي ، العقد الثمين ، 71/4 ؛ ينظر أيضاً : الروذراوري ، ذيل تجارب الأمم ، ص 235-236 .

[51] – الفاسي ، العقد الثمين ، 71/4 .

[52] – الروذراوري ، ذيل تجارب الأمم ، ص 236 ؛ الفاسي ، العقد الثمين ، 75/4 .

[53] – الروذراوري ، ذيل تجارب الأمم ، ص 236 ؛ الفاسي ، العقد الثمين ، 75/4 .

[54] – الروذراوري ، ذيل تجارب الأمم ، ص 236 ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 174/2 ؛ الذهبي ، تاريخ الإسلام ، 12/9 ؛ الفاسي ، العقد الثمين ، 75/4 .

الحرمين ، وأنفذ لشيوخ بني حسان أموالاً ، فقيل إنه بعث إلى حسان خمسين ألف دينار ، وأهدى إليه جارية جهزها بمال عظيم ، فأذعن للطاعة) [55] .

عندها أدرك أبو الفتوح العلوي أنه في وضع حرج وأنه قد خُذِل ، ذهب إلى الوزير المغربي وقال له : (أنت أوقعتني فخلصني ، فركب معه إلى مفرج ، وأخبراه بخبر أولاده ، فقال لهما : وما تريدان مني ؟ قال له العلوي ، وهو أبو الفتوح : إن لي عليك حقاً ، وأريد أن تجاوبني عليه ، بأن تبعث معي من يوصلني إلى مكة ، ولا تحوجني إلى أن أركب فرساً أملس وأهرب بنفسي ، فتخطفني العرب ، فضمن له مفرج ذلك ، وبعث معه جماعة من طيء ولم يزالوا معه حتى بلغ مكة) [56] ، فتلقاه بنو حسن وأصحابه واستقامت أموره بها وكاتب الحاكم واعتذر إليه فقبل عذره [57] .

كان الخاسر الأكبر في هذه الأحداث هو الوزير المغربي الذي استطاع الخليفة الحاكم الفاطمي إفساد تدبيره ، فعاد بنو الجراح وأبو الفتوح إلى طاعة الدولة الفاطمية ، وخرج – كما يقول إحسان عباس – من الوليمة بغير حمّص وأخفق في الثأر لنفسه ولأهله [58] .

هنا خاف الوزير المغربي أن يسلمه بنو الجراح إلى الخليفة الحاكم الفاطمي ، ولم تعد الرملة مكاناً آمناً له ، فكتب إلى الخليفة الحاكم بكتاب صدره بقوله :

وأنت وحسبي أنت تعلم أن لي لسانا أمام المجد يبني ويهدم

وليس حليما من تباس يمينه فيرضى ولكن من تعض فيحلم [59]

ورجح ابن العديم أن في ذلك إشارة إلى طلبه الأمان من الخليفة الحاكم [60] ، وذهب إحسان عباس أن البيتين فيهما تهديد للحاكم من أن له لساناً وراء المجد يبني ويهدم وفيهما إيماء إلى طيش الخليفة الحاكم وجهله وعجزه عن إظهار الحلم في المواطن الضرورية [61] ، فما كان من الخليفة الحاكم إلاّ أن أرسل إلى الوزير المغربي كتاب أمان له [62] ، وذكر ابن العديم إلى أنه غادر الرملة قبل وصول أمان الخليفة الحاكم له [63] ، ويبدو أن الوزير المغربي لم يثق بالعهود التي قطعها الخليفة الحاكم وعد أمانه شرك صائد ، لذا لم يكن له وجهة يأوي إليها إلاّ العراق حيث لا

---

[55] – الفاسي ، العقد الأمين ، 75/4 ؛ ينظر أيضاً : الروذراوري ، ذيل تجارب الأمم ، ص 237 .

[56] – الفاسي ، العقد الثمين ، 75/4 ؛ ينظر أيضاً : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 174/2 .

[57] – الروذراوري ، ذيل تجارب الأمم ، ص 238 .

[58] – الوزير المغربي ، ص 51 .

[59] – ابن العديم ، بغية الطلب ، 2549/6 ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، 124/13 .

[60] – بغية الطلب ، 2551/6 .

[61] – الوزير المغربي ، ص 57 .

[62] – ينظر نص كتاب أمان الخليفة الحاكم الفاطمي إلى الوزير المغربي : ابن العديم ، بغية الطلب ، 2550/6 .

[63] – بغية الطلب ، 2551/6 .

نفوذ للفاطميين فيها ، فاستجار بمفرج بن دغفل بن الجراح الطائي وسأله إلى يسيره إلى العراق [64] .

وفي بغداد ألقى رحالة عند الوزير فخر الملك [65] ، ورجح إحسان عباس أنه وصل بغداد قبل سنة 403 هـ/2012 م [66] ، وكان فخر الملك واسع النعمة سخياً يكرم العلماء والشعراء فقصده العديد منهم ومدحوه [67] ، فلعله ينال عنده حظوة ، إلا أن المشكلة التي واجهته هو موقف الخليفة القادر بالله العباسي (381-422 هـ/ 991-1031 م) الذي اتهمه بأنه عيناً للفاطميين ، وقد أشار إلى ذلك ابن العديم قائلاً : (وبلغ القادر بالله خبره ، فاتهمه بالورود لإفساد الدولة العباسية) [68] وطلب من فخر الملك إبعاده ، فسيّره إلى واسط مكرماً ، وأشار ياقوت إلى أنه بقي بواسط حتى وفاة فخر الملك مقتولاً سنة 407 هـ/1016 م فرحل إلى بغداد [69] ، ويبدو أنه مدة بقاءه في واسط كتب رسالته التي دافع فيها عن نفسه أنه ليس من المغرب وعلى تبرئته من الإسماعيلية مذهب الدولة الفاطمية وأكد على ثقافته الحديثة إذ قال : (فإني نشأت وغذيت بكتب الحديث وحفظ القرآن ومناقبة الفقهاء ومجالسة العلماء ، والله ما رأيت قط بتلك البلاد مأدبة ولا وليمة إلا لعرس ، ولا كنت متشاغلاً إلا بعلم أو دين ، ولقد سلم لي من جزازات كتبي ما هو اليوم دال على تشاغلي بالدين القيم ، واستمراري على النهج الأسلم لأنه ليس كتاب من كتب السنة إلّا وقد أحطت به رواية ورمته دراية ، وها هنا اليوم نسختان من موطأ مالك سماعي من جهتين ، وعليهما خطوط الشيخين والصحيحان لمسلم والبخاري ، وجامع سفيان ومسانيد عدة عن التابعين) [70] ، وأشار إحسان عباس أنه حاول في رسالته أن يخفي كل صلة له بالثقافة الشيعية واستطاع بذلك أن يصلح ما بينه وبين الخليفة القادر بالله العباسي [71] .

---

[64] – الروذراوري ، ذيل تجارب الأمم ، ص 238 ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 174/2 .

[65] – ابن العديم ، بغية الطلب ، 2551/6 ؛ وفخر الملك هو أبو غالب محمد بن علي بن خلف من أهل واسط خدم بهاء الدولة بن عضد الدولة وتولى الوزارة له ولسلطان الدولة وقام بأعمال عديدة في بغداد ثم نقم عليه سلطان الدولة البويهي وقتله سنة 407 هـ/1016 م ، ينظر : ابن الجوزي ، المنتظم ، 123/15-124 ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 124/5-127 .

[66] – الوزير المغربي ، ص 59 .

[67] – ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 124/5 .

[68] – بغية الطلب ، 2551/6 ؛ ينظر أيضاً : ياقوت ، معجم الأدباء ، 163/3 ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 674/7 .

[69] – معجم الأدباء ، 163/3 .

[70] – ابن العديم ، بغية الطلب ، 2536/6 .

[71] – الوزير المغربي ، ص 60 ، 61 ؛ وذكر ابن العديم أنه اختصر الرسالة ، بغية الطلب ، 2535/6-2537 .

إلا أنه لم يمكث في بغداد سوى أياماً قلائل غادر بعدها إلى الكوفة حيث التقى فيها قرواش بن مقلد العقيلي [72] الذي كان هناك فاصطحبه معه إلى الموصل [73] ، ولعل مغادرته بغداد بهذه السرعة على الرغم من رضا الخليفة عنه صلة بأحداث مقتل الوزير فخر الملك وهو محسوب عليه وأحاطته برعايته فلم يكن الجو مهيئاً أن يلعب دوراً فيها فاضطر إلى الذهاب إلى قرواش بن بدران الذي كان موجوداً في الكوفة ، ولم يبق في الموصل إلا مدة يسيرة إذ خافه وزير قرواش العقيلي أن ينافسه فدفع إليه مالاً كثيراً وطلب منه الرحيل عنها [74] .

فتوجه إلى ديار بكر ونزل في ضيافة أميرها نصر الدولة أحمد بن مروان الكردي [75] ، وأظهر فيها الزهد والتنسك ولبس الصوف والثياب المرقعة إلى أن خاطبه نصر الدولة بتولي الوزارة فقبلها بعد إلحاح ، ثم تغيرت حاله إلى أبهة الوزراء ، قال ابن العديم : (ثم خوطب في التصرف ففعله بعد إباء شديد وامتناع كثير ، وكانت لبسته إذ ذاك المرقعة والصوف ، ولم تمض إلاّ مدة يسيرة حتى غير ذلك اللباس ، وظهر أمره بعد الالتباس ، وانكشفت حاله لجميع الناس ، وجرت حاله على ما قال ، وقد ابتاع غلاماً تركياً كان يهواه قبل أن يبيعه منه مولاه :

تبدل من مرقعة ونسك بأنواع الممسك والشفوف
وعنّ له غزال ليس يحوي هواه ولا رضاه بلبس صوف
فعاد أشد ما كان انتهاكا كذاك الدهر مختلف الصروف [76]

وفي بلاط نصر الدولة كانت للوزير المغربي عثرة مع أميرها دفعته إلى الاستعجال بالمغادرة ، ويحكي ابن العديم ذلك عن نصر الدولة قوله : (جاءني يوماً ومعه سدس كاغد فقال لي : قد أثبت في هذا السدس أسماء أصحابك الذين قد أخذوا أموالك وأخلوا خزانتك من مال يعد فيها لحاجة أو شدة ما قيمته ثلاثمائة وسبعون ألف دينار– شك الوزير في ذاك– وقال : إذا أخذت هذا القدر منهم لم تجحف بأموالهم وكان كل منهم مرتباً في خدمته ومركزه وولايته وتكون قد نقصت من أموالك التي احتجنوها ما جعلته لك خزانة وعدة ، فقلت له : يا هذا إنما نصبتك وزيراً لتعطيني وتعطي أصحابي بعمارة بلادي وتوفير أموالي ، فأما مصادرة أصحابي فلو أردت هذا لأخذت أنا

---

[72] – هو أبو منيع قرواش بن المقلد بن المسيب العقيلي تولى إمارة بني عقيل في الموصل والكوفة سنة 391 هـ/1000 م وخطب للفاطميين فيها وتوفي سنة 441 هـ/1049 م ، ينظر : ابن الجوزي ، المنتظم ، 327/15 ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 263/5–267 .

[73] – ابن العديم ، بغية الطلب ، 2551/6 .

[74] – ابن العديم ، بغية الطلب ، 2551/6 .

[75] – هو نصر الدولة أبو نصر أحمد بن مروان بن دوستك الكردي تولى إمارة ديار بكر وميافارقين بعد مقتل أخيه سنة 401 هـ/1010 م وتوفي سنة 453 هـ/1061 م بعد اثنتين وخمسين سنة في الحكم ، ينظر : ابن الجوزي ، المنتظم ، 70/16–71 ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 177/1 – 178 .

[76] – بغية الطلب ، 2551/6 ؛ ينظر أيضاً : ابن بسام ، الذخيرة ، 477/8 .

أضعافه وكفاني فيك مردك صاحبي هذا الذي هو أهون وأدون من يخدمني ، ولم أكن محتاجا فيه إلى مثلك ، فقال لي : إذا كان هذا رأيك فاحرسني من أصحابك ولا تطلعهم على ما قلته في معناهم فتفسد ما بيني وبينهم ، فقلت : أفعل) [77] ، وعلى الرغم من وفاء نصر الدولة له إلاّ أنه بقي قلقاً على ما بدر منه وأخذ يتحين الفرص لمغادرة ديار بكر ، ولعله ثقل على أميرها سلوكه ، ثم جاءت الفرصة المناسبة إذ أن وزير قرواش بن المقلد أمير الموصل توفي فأرسل إلى الوزير المغربي لتولي الوزارة له فأعمل الحيلة في المغادرة دون علم نصر الدولة ، إلاّ أن عيون الأخير كشفته دون أن يدري ، فاستأذنه في الانحدار إلى تصريف بعض الأعمال فأذن له فسار مسرعاً نحو الموصل ، وقد أشار ابن العديم إلى سماحة نصر الدولة وحسن معاملته له بقوله عن نصر الدولة : (.. وتشاغل بإصلاح أمره للانحدار فجاءني موسك خالي وقال لي : عرفت أن أبا القاسم بن المغربي على الانحدار إلى الجزيرة ، وكذب فإنه بنية المضي إلى الموصل فقلت : قد عرفت ذلك وعلمته ودعه يمضي إلى اللعنة فما في مقامه هاهنا لكم فائدة ، وكان موسك ممن سعى ابن المغربي به ، وأراد مصادرته ، وأخذ المال منه ، قال : وتدعه يمضي وقد أخذ أموالك وسرقها وحصلها ، واحتجنها ، ولم لا تقبض عليه وتأخذ ما أخذ ثم تصرفه إلى اللعنة وسوء المنقلب ؟ فضحكت منه وقلت : ليس كل من يأخذ مالي أرتجعه منه ، ولعمري إنه خدمنا وانتفع منا وكسب معنا ، وأخذ ذلك منه لؤم) [78] .

ولم تشر المصادر المتوفرة إلى مدة بقاءه في ديار بكر ولكنه غادر إلى الموصل أول مرة بعد وفاة فخر الملك سنة 407 هـ/1016 م ثم لم يلبث فيها إلاّ يسيراً حتى غادر إلى ديار بكر ووزر هناك لأميرها نصر الدولة ثم رجع إلى الموصل ثانية وبقي فيها حتى سنة 411 هـ/1020 م [79] ، أي أن مدة وزارته لكل من أبي نصر صاحب ديار بكر وقرواش صاحب الموصل أربع سنوات بين السنتين أعلاه .

وقد وصف ابن بسام وزارته بالموصل بقوله : (ثم روسل بعد بوزارة الموصل ، فسار إليها ، وتقلد لحينه وزارة المستولى عليها ، فملك زمامها ، وصرف أيامها ، ودوخ معالمها وأعلامها ، وأتى على ما كان بها من رمق ، وجرى من العسف بأعاظم أهلها من أبعد طلق) [80] ، إلا أن العلاقة بين الوزير المغربي وبين قرواش العقيلي لم تدم ، وذلك بسبب رجل كان يخدم المقلد وولده قرواش يدعى سليمان بن فهد وجنى من ذلك أموالاً ثم صادره وزير قرواش فهرب ، ولما صارت الوزارة إلى أبي القاسم المغربي وعد سليمان بن فهد بخلاص أمواله وأنزله في بيته إلاّ أنه لم يستطع الوفاء

---

[77] – بغية الطلب ، 3/1134-1135 .

[78] – بغية الطلب ، 3/1135 .

[79] – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 7/664 .

[80] – الذخيرة ، 8/477 .

له ، فضلاً عن أن الوزير المغربي أخذ وهو في الموصل يتوق نحو الأعلى إذ كانت له مراسلات ووساطة بين قرواش وبين السلطان مشرف الدولة البويهي [81] (411-416 هـ/1020-1025 م) في بغداد ، واجتمع ببعض رؤساء الأتراك واستمالهم [82] ، ليمهد لنفسه قادم الأيام [83] ، فلما استوحش منه قرواش فكر الوزير المغربي بحيلة يخرج بها من الموصل فعرض على قرواش العقيلي مصاهرة نصر الدولة صاحب ديار بكر وأنه صاحب المهمة فأذن له فخرج واصطحب معه سليمان بن فهد فرآهما خارج البلد بدران أخو قرواش فأسرع إلى أخيه وقال له كيف تتركهما يخرجان وقد أخذا مالك فقبض عليهما قرواش وطالبهما بالمال فمات سليمان تحت الضرب [84] ، وأما الوزير المغربي فأعمل الحيلة لقرواش إذ قال له : إذا كنت تريد مالي فهو في بمصر والكوفة وبغداد فإن سلمت نفسي سلمتك المال وخدعه بالقول اللطيف والوعود فانخدع له وأخذ ما عنده وتركه [85] .

ويرجح إحسان عباس إلى أن الوزير المغربي غادر الموصل لأنه من الصعب أن يبقى جوار أميرها قرواش لعدم تمكنه من تحقيق ما وعده ، وبقي المدة بين مغادرته الموصل سنة 411 هـ/1020 م حتى سنة 414 هـ/1023 م في بغداد وما جاورها يمهد لنفسه مكاناً فيها [86] .

وجاءت الفرصة عندما قبض مشرف الدولة على وزيره مؤيد الملك الرخجي [87] سنة 414 هـ/1023 م فاستدعى الوزير المغربي وأسند إليه الوزارة بوساطة من الأثير أبي المسك عنبر [88] الذي كان على صلة بالوزير المغربي من خلال المراسلات بينهما أيام خدمته قرواش [89] .

---

[81] – هو أبو علي الحسين بن بهاء الدولة تولى حكم الإمارة البويهية في بغداد سنة 411 هـ/1020 م بعد سلطان الدولة وتوفي سنة 416 هـ/1025 م ، ينظر : ابن الجوزي ، المنتظم ، 170/15 .

[82] – ابن العديم ، بغية الطلب ، 2551/6 .

[83] – إحسان عباس ، الوزير المغربي ، ص 67 .

[84] – ذكر الفارقي أن سليمان بن فهد هو الآخر فدا نفسه بالمال وخرج إلى ميافارقين ، تاريخ ميافارقين ، ص 130 .

[85] – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 664/7 ؛ إحسان عباس ، الوزير المغربي ، ص 67-68 .

[86] – الوزير المغربي ، ص 68 .

[87] – هو أبو علي الحسن بن الحسين الرخجي الملقب بمؤيد الملك وزر لمشرف الدولة سنة 413 هـ/1022 م وعزل بعد سنتين وتوفي سنة 430 هـ/1038 م ، ينظر : ابن الجوزي ، المنتظم ، 269/15 -270 .

88 – أبو المسك عنبر خادم بهاء الدولة كان قد بلغ مبلغا لم يبلغه أمثاله ، فكان أصحاب الأطراف يقبلون يده ويترجلون عند لقائه ، وينفذ حكمه فيما ينفذ فيه حكم الملوك ، توفي سنة 421 هـ/1030 م ، ينظر : ابن الجوزي ، المنتظم ، 210/15 .

[89] – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 674/7 ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، 2537/6 .

وعلى الرغم من أن الوزارة في بغداد كانت حلمه الذي طالما سعى إليه [90] ، إلا أن وزارته على قول ابن العديم كانت (بغير خلعة ولا لقب ، ولا فارق الدرّاعة [91]) [92] ، وقد وصف ابن بسام حاله عند تقلد الوزارة بقوله : (فتبحبح ذروتها ، واقتعد لوقته صهوتها ، فانتظمت له الأيام ، وحمد على يديه النقض والإبرام ، وبلغ الحال التي تصغر عنها النعم ، وتقصر دونها الهمم) [93] ، وكما هو حال وزراء ذلك العصر ، قصده الشعراء ومدحه عدد منهم من أشهرهم مهيار الديلمي [94] الذي قال فيه :

عسى معرض وجهه يقبل فيوهب للآخر الأول
فداك وتفعل ما لا تقول ممن يقول ولا يفعل
يلومك في الجود لمّا عرفت من شرف الجود ما يجهل
سللت على المال سيل العطاء ... فلا حيك في الجود مستقتل [95]

قال ابن العديم : (فلما انتهى إلى آخرها استحسنها وأعجب بها ، وأشار إليه إلى الناحية التي فيها الدنانير والدراهم ، فجلس إليها ، وفتح كمه الأيسر وجمع إليه بيده اليمنى حتى ملأه ، ثم فتح كمه الأيمن وجمع إليه بيده اليسرى إلى أن لم يبق على الأرض دينار ولا درهم ، ونهض فقبل الأرض وانصرف ، وسئل عما حصل له ، فذكر أن مبلغه ألفا ومائة ونيفا وعشرين ديناراً ، وسبعة آلاف وثلاثمائة درهم ، وهذا عطاء ما سمع بمثله ممن جاد في وقته لشاعر سواه) [96] ، إلا أن علاقته مع مهيار الديلمي لم تستمر إذ قال مهيار عنه : (وزر ابن المغربي ببغداد ، وتعظّم وتكبّر ، ورهبه الناس ، فانقبضت عن لقائه) [97] .

كما أن إسناد الوزارة إليه أثار سخرية بعض البغداديين وشكوكهم في إمكانية إدارة الأمور إذ كيف لنحوي أن يكون وزيراً فقال أحدهم :

ويلي وويحي وويهي على ملوك بويه

---

[90] – إحسان عباس ، الوزير المغربي ، ص 70 .

[91] – الدراعة جبة من الصوف مشقوقة المقدم ، ينظر : إبراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، 280/1 (مادة درع) .

[92] – بغية الطلب ، 2540/6 ؛ ينظر أيضاً : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 174/2 ؛ المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، 279/3 .

[93] – الذخيرة ، 478/8 .

[94] – هو أبو الحسن مهيار بن مرزويه الديلمي كان مجوسياً فأسلم على يد الشرف الرضي وكان من كبار شعراء عصره توفي سنة 428 هـ/1036 م : ينظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 359/5-363 .

[95] – ابن العديم ، بغية الطلب ، 2541/6 .

[96] – ابن العديم ، بغية الطلب ، 2541/6 .

[97] – الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، 123/13 .

يا ضيعة الملك جداً ويا بكائي عليه

يا مغربي رويداً كيف اهتديت إليه

سلبته كل حلّيٍ في جيده ويديه

سياسة الملك ليست ما جاء عن سيبويه [98]

وكان توليه الوزارة في بغداد في رمضان سنة 414 هـ/1023 م ودامت وزارته عشرة أشهر وخمسة أيام [99] ، وفي سنة 415 هـ/1024 م غادر بغداد إلى الموصل [100] ، وقد اختلفت الروايات في سبب خروجه من الوزارة ، فأشار ابن الأثير إلى أنه وقعت وحشة بين الأثير عنبر الخادم ومعه الوزير المغربي وبين الأتراك فاستأذنا مشرف الدولة في الخروج إلى مكان يأمنان فيه على أنفسهما فقال : أنا أسير معكما فساروا إلى قرواش وكان في السندية [101] ثم ذهبوا جميعاً إلى أوانا [102] ، فلما علم الأتراك ذلك انزعجوا وأرسلوا إليهم يعتذرون فقال لهم الوزير المغربي : (إني تأملت لكم من الجامكيات [103] ، فإذا هي ستمائة ألف دينار ، وعملت دخل بغداد ، فإذا هو أربعمائة ألف دينار ، فإذا أسقطتم مائة ألف دينار ، تحملت الباقي ، فقالوا : نسقطها ، فاستشعر منهم أبو القاسم المغربي فهرب إلى قرواش ، فكانت وزارته عشرة أشهر وخمسة أيام ، فلما أبعد خرج الأتراك وسألوا الملك والأثير الانحدار معهم فأجابهم إلى ذلك) [104] .

وفي رواية ابن بسام أن خلافاً وقع بين مشرف الدولة والأتراك فأوقع بهم فثاروا مما اضطر الوزير إلى الهرب ومعه الأثير عنبر وأخرجا معهما مشرف الدولة ، قال : (وقد قيل إن إخراجه الملك معه إنما كانت حاجة في نفسه قضاها ، وخطةً من مكره ألزمه إياها ، إبقاء على جلالة المقدار ، وأنفةً من الانفراد بعيب الفرار) [105] ، فيما أشار المقريزي إلى أن الوزير المغربي (أغرى رجال الدولة بعضهم ببعض ، وكانت أمور طويلة آلت إلى خروجه من الحضرة) [106] .

---

[98] – ابن العديم ، بغية الطلب ، 2541/6 .

[99] – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 678/7 ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، 123/13 .

[100] – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 678/7 .

[101] – السندية قرية من قرى بغداد بينها وبين الانبار على نهر عيسى ، ينظر : ياقوت ، معجم البلدان ، 268/3 .

[102] – بلدة على نهر دجيل بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت ، ينظر : ياقوت ، معجم البلدان ، 274/1 .

[103] – الجامكيات لفظ فارسي بمعنى اللباس أو الأجر أو الراتب أو المنحة ، ينظر : دهمان ، معجم الألفاظ التاريخية ، ص 51 .

[104] – الكامل في التاريخ ، 678/7 .

[105] – الذخيرة ، 478/8 .

[106] – المواعظ والاعتبار ، 279/3 .

وقد وصف غلامه تحرير حالة الوزير عند فراره بقوله : (عهدي بالوزير وهو خارج ، وقد لبس ثياباً رثةً ، وعلى وجهه منديل قد لفه فيه لئلا يمتاز من جملة العامة ، وقد أقبل عليّ واستقبلني في الدهليز ينشدني لنفسه في الحال :

تمرست مني العلا بامرئٍ قد علق المجد بأمراسه
يستنجدُ النجدة من رأيه ويستقلُّ الكثر من باسه
أروع لا يرجع عن تيهه والسيف مسلول على رأسه [107]

وفي رواية ابن العديم أن الأثير عنبر استوحش من شخص يدعى الوافي أبو مقاتل أرسلان الطويل فأغراه الوزير المغربي به فقتله ، فجرت أمور دعت الثلاثة إلى الخروج من بغداد ، ثم إن الأثير ومشرف الدولة عادوا إليها وفارقهم الوزير المغربي إلى الموصل [108] .

ويبدو من الروايات الثلاث أن محور الخلاف كان بين الوزير وبين الأتراك حول ما يقاضون من الأموال وأنه أراد أن ينقصهم وأغرى الأثير عنبر بهم فقتل بعضهم فثاروا على الوزير المغربي إذ حملوه ما حدث بدليل أن الاثنين رجعا فيما آثر هو السلامة وذهب إلى الموصل .

كانت هذه المرة الثانية التي قصد فيها أمير الموصل قرواش بن مقلد العقيلي الذي – فيما يبدو – غض النظر عما سلف ، فذكر ابن بسام أنه أقام (بالموصل وقد كثر أتباعه ، وملأ البلاد عيانه وسماعه ، فأقام بها يسيراً ، واستشعر من صاحبه تقصيراً ، فاستأذنه في الرجوع إلى ميافارقين) [109] ، ويضع ابن الأثير تاريخ مغادرته الموصل في سنة 416 هـ/1025 م [110]

وعن سبب الوحشة بينه وبين أمير الموصل قرواش بن المقلد العقيلي ، تحدث ابن الأثير عن فتنة قامت في الكوفة بين العلويين والعباسيين (وسببها أنّ المختار أبا عليّ بن عبيد الله العلويّ [111] وقعت بينه وبين الزكي أبي عليّ النهرسابسيّ [112] ، وبين أبي الحسن عليّ بن أبي طالب بن عمر [113] مباينة ، فاعتضد المختار بالعبّاسيّين ، فساروا إلى بغداد ، وشكوا ما يفعل بهم النهرسابسيّ

---

[107] – الذخيرة ، 478/8 .

[108] – بغية الطلب ، 2552/6 .

[109] – الذخيرة ، 478/8 .

[110] – الكامل في التاريخ ، 690/7 .

[111] – هو أبو علي عمر المختار بن مسلم الأحول بن محمد بن محمد الأشتر بن عبيد الله الثالث بن علي بن عبيد الله الثاني بن علي الصالح بن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي المرتضى بن أبي طالب (υ) ، ينظر : ابن عنبة ، عمدة الطالب ، ص 329 .

[112] – هو محمد بن الحسن النهرسابسي بن يحيى بن الحسين النقيب بن أحمد المحدث بن عمر بن يحيى بن الحسين ذي الدمعة بن زيد الشهيد بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب (υ) ، ينظر : العمري ، المجدي في أنساب الطالبيين ، ص 176 .

[113] – هو علي بن محمد بن عمر بن يحيى بن الحسين بن أحمد بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي المرتضى بن أبي طالب (υ) ، ينظر : العمري ، المجدي في أنساب الطالبيين ، ص 176 .

، فتقدّم الخليفة القادر بالله بالإصلاح بينهم مراعاة لأبي القاسم الوزير المغربيّ لأنّ النهرسابسيّ كان صديقه ، وابن أبي طالب كان صهره ، فعادوا ، واستعان كلّ فريق بخفاجة ، فأعان كلّ فريق من الكوفيّين طائفة من خفاجة ، فجرى بينهم قتال ، فظهر العلويّون ، وقتل من العبّاسيّين ستّة نفر ، وأحرقت دورهم ونهبت ، فعادوا إلى بغداد ، ومنعوا من الخطبة يوم الجمعة ، وثاروا ، وقتلوا ابن أبي العبّاس العلويّ وقالوا : إنّ أخاه كان في جملة الفتكة بالكوفة ، فبرز أمر الخليفة إلى المرتضى [114] يأمره بصرف ابن أبي طالب عن نقابة الكوفة ، وردّها إلى المختار ، فأنكر الوزير المغربيّ ما يجري على صهره ابن أبي طالب من العزل ، وكان عند قرواش بسرّ من رأى ، فاعترض أرحاء كانت للخليفة بدرزيجان [115] ، فأرسل الخليفة القاضي أبا جعفر السمنانيّ [116] في رسالة إلى قرواش يأمره بإبعاد المغربيّ عنه ، ففعل) [117] .

ويعلق إحسان عباس على حالة الوزير المغربي بعد هذا بقوله : أين يتوجه هذا الوزير الذي يثير المشكلات أين ما حل ؟ لم يجد له ملجأ إلاّ عند نصر الدولة صاحب ديار بكر ، ولكن بأي وجه يلقاه وقد كذب عليه ليهرب منه ، إن عودته تؤكد أنه مهما كان يؤخذ عليه من كيد وشر كان يتمتع بكفاءة جعلت المتعاملون معه يتجاوزون عن سيئاته بشفاعة فضائله [118] .

كانت إقامته عند نصر الدولة أول الأمر على حكم الضيافة فأكرمه (غاية الإكرام ، وأقطعه ضياعاً جليلة تقوم به ، وبمن وصل معه من حاشيته وأتباعه) [119] ، ثم جاءت الفرصة المناسبة عندما توفي وزير نصر الدولة سنة 416 هـ/1025 م [120] فاستوزره نصر الدولة للمرة الثانية [121] ، قال الفارقي : (وبقي في الوزارة والناس معه في أحسن حال) [122] ، فلما كان سنة 418 هـ/1027 م حدث في بغداد أن رضي الخليفة عن صديقه النهرسابسي العلوي [123] ، ولا يستبعد

---

[114] – هو علي بن الحسن بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي المرتضى بن أبي طالب ولد سنة 355 هـ/965 م وتولى نقابة الطالبيين ببغداد وتوفي سنة 436 هـ/1044 م ، ينظر : ابن الجوزي ، المنتظم 295/15–299 .

[115] – وهي قرية كبيرة تحت بغداد على الجانب الغربي من دجلة ، ينظر : ياقوت ، معجم البلدان ، 450/2 .

[116] – هو أبو جعفر محمد بن أحمد بن محمد السمناني سكن بغداد وتولى القضاء بها وتوفي سنة 444 هـ/1052 م ، ينظر : ابن الجوزي ، المنتظم ، 338/15 .

[117] – الكامل في التاريخ ، 679/7 .

[118] – الوزير المغربي ، ص 74 .

[119] – ابن العديم ، بغية الطلب ، 2552/6 .

[120] – الفارقي ، تاريخ ميافارقين ، ص 128 .

[121] – ياقوت ، معجم الأدباء ، 163/3 ؛ ابن الابار ، أعتاب الكتاب ، ص 207 ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 175/2 .

[122] – تاريخ ميافارقين ، ص 131 .

[123] – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 679/7 .

أن توسط النرسابسي لدى الخليفة برفع السخط عن الوزير المغربي ، لهذا جاءته الدعوة من بغداد ، قال ابن العديم : (ولم يزل عنده – أي نصر الدولة – إلى أن كوتب من بغداد بالعود إليها ، فاستأذن نصر الدولة على ذلك فلم يمكنه مخالفته) [124] ، وذكر أنه استدعي إلى بغداد للوزارة ثانية [125] ، وعند مغادرته ميافارقين عاجلته المنية في الحادي عشر من شهر رمضان سنة ثمان عشرة وأربعمائة [126] .

أما عن سبب وفاته فذهب البعض إلى أنه سُقي سمّ فمات ، فذكر ابن العديم أن أبا الحسن بن القاسم بن صقلاب [127] قال لنصر الدولة : (إن هذا رجل عظيم له سياسة وعظم حيلة وقد بلغك ما فعل من الأمور العظام ، وأنه دوخ الممالك ، وقلب الدول ، وقد خبر حال هذا البلد وطال مقاماً فيه ، وعرف غوامض أسراره ، ولست تأمن مكره ، فاحتال عليه وسقاه السم في شرابه ، وكان مبرزا بأخبيته وفساطيطه بظاهر ميارفارقين ، فلما أحس بالموت تقدم برده إلى المدينة فرد إليها ، وتوفي بها في شهر رمضان سنة ثماني عشرة وأربعمائة) [128] .

وقد شكك ابن حجر برواية السم [129] ، وقال إحسان عباس : إن الاقتران بين موته وبين رغبته في مفارقة ميافارقين إلى بغداد هو الذي يوحي بذلك التقدير والظن [130] .

وذكر أنه لما أحس بالموت عمل حيلة بأن (كتب كتاباً إلى كل من يصل إليه من الأمراء والرؤساء الذين بينه وبين الكوفة ، يعرفهم فيه أن حظية له توفيت ، وأن تابوتها يجتاز بهم إلى مشهد أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، وخاطبهم لمن يصحبه ويحضره ، وكان قصده أن لا يتعرض أحد لتابوته ، وأن ينطوي خبره ، فتم له ذلك ، وحُمل الكتاب مع تابوته ، وكل من يجتار به ظن أنه الجارية ، حتى وصل ودفن بالمشهد بالكوفة) [131] ، وأوصى أن يكتب على قبره :

كنت في سفرة الغواية والجهل مقيما فحان مني قدوم

تبت من كل مأثم فعسى يمحى بهذا الحديث ذاك القديم

---

[124] – بغية الطلب ، 2552/6 .

[125] – ابن بسام ، الذخيرة ، 479/8 ؛ ابن الابار ، أعتاب الكتاب ، ص 207 ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، 2555/6 .

[126] – ابن العديم ، بغية الطلب ، 2555/6 ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 176/2 وقال توفي في الثالث عشر من رمضان .

[127] – هو أبو الحسن محمد بن القاسم بن صقلاب من أهل الموصل كان من وزراء نصر الدولة بن مروان صاحب ديار بكر وميافارقين ، ينظر : ابن العديم ، بغية الطلب ، 2555/6 .

[128] – بغية الطلب ، 2555/6 ؛ ينظر أيضاً : ابن بسام ، الذخيرة ، 479/8 ؛ الداوودي ، طبقات المفسرين ، 157/1 ؛ المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، 279/3 .

[129] – لسان الميزان ، 191/3 .

[130] – الوزير المغربي ، ص 79 .

[131] – ابن العديم ، بغية الطلب ، 2555/6 ؛ ينظر أيضاً : ابن الجوزي ، المنتظم ، 186/15 ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 702/7 .

بعد خمس وأربعين لقد ما طلت إلا أن الغريم كريم [132] .

وقيل إنه أوصى أن يدفن عند عتبة باب مشهد أمير المؤمنين علي (ᴗ) وأن يكتب عند قبره : يا جامع الناس لميقات يوم معلوم اجعل الحسين بن علي من الفائزين ، وقيل إنه أوصى أن يدفن عند مشهد الحسين بن علي (ᴗ) وأن يكتب عند رأسه :

سقاك الإله الأزلي من السحاب الهطلي

قبر الحسين بن على عبد الحسين بن على

وقد رجح سبط ابن الجوزي الرواية الأخيرة [133] ، ولكننا نرجح الرواية الأولى – أي أنه دفن في عتبة مشهد علي (ᴗ) – كون أغلب المصادر ذكرت ذلك وأنه كان يتردد على الكوفة وصهره بها ، أما عمره فذكر البعض أنه توفي عن ست وأربعين سنة [134] ، ولما كانت ولادته كما صرحت معظم المصادر سنة 370 هـ/ 980 م [135] فأن عمره يكون ثمان وأربعون سنة .

المبحث الثاني : رسالته في السياسة

برع الوزير المغربي في العديد من العلوم منذ صغره ، وقد أجمل ابن خلكان ذلك بقوله : (استظهر القرآن العزيز وعدة من الكتب المجردة في النحو واللغة ونحو خمسة عشر ألف بيت من مختار الشعر القديم ، ونظم الشعر وتصرف في النثر وبلغ من الخط إلى ما يقصر عن نظراؤه ، ومن حساب المولد والجبر والمقابلة إلى ما يستقل بدونه الكاتب ، وذلك كله قبل استكماله أربع عشرة سنة) [136] ، أما مؤلفاته فهي كثيرة منها : كتاب مختصر إصلاح المنطق لابن السكيت ، وكتاب الإيناس ، وكتاب أدب الخواص ، وكتاب المأثور في ملح الخدور ، وديوان الشعر والنثر [137] ، ومنتخب من كتاب الأغاني [138] ، وتتمة كتاب الفهرست لابن النديم [139] ، وكتاب العماد في

---

[132] – ياقوت ، معجم الأدباء ، 163/3 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، 618/15 مع بعض الاختلاف في ألفاظ الشعر .

[133] – مرآة الزمان ، ص 338–339 .

[134] – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 702/7 ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص 328 .

[135] – ابن الجوزي ، المنتظم ، 185/15 ؛ ياقوت ، معجم الأدباء ، 162/3 ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، 2536/6 ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 173/2 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، 617/15 ؛ ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، 266/4 ؛ الداوودي ، طبقات المفسرين ، 155/1 .

[136] – وفيات الأعيان ، 173/2 .

[137] – ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 172/2 .

[138] – ياقوت ، معجم الأدباء ، 51/4 ؛ حاجي خليفة ، كشف الظنون ، 81/1 .

[139] – ياقوت ، معجم الأدباء ، 635/4 ؛

النجوم [140] ، كتاب اختيار شعر أبي تمام والبحتري والمتنبي [141] ، كتاب الإلحاق بالاشتياق [142] ، وكتاب خصائص علم القرآن [143] ، ورسالة القاضي والحاكم [144] ، كتاب السياسة [145] ، كتاب العماد في النجوم [146] ، وكتاب النوادر في الفقه [147] ، وكتاب في تفسير القرآن [148] ، وكتاب الشاهد والغائب [149] ، وكتاب فضائل القبائل [150] ، وكتاب أخبار بني حمدان وأشعارهم [151] .

وبسبب ثقافته الواسعة فقد وصف بأنه (كان كاتباً عالماً يقول الشعر) [152] ، (وهو من الدهاة العارفين ، وكان خبيث الباطن) [153] ، (ولقب بالكامل ذي الجلالين) [154] ، (والوزير الكامل) [155] وهذه الألقاب حازها عندما كان في العراق [156] ، (وكان في الرتبة العالية من الأدب والعلم) [157] ، وأحسن من أجمل وصفه سجعاً ابن بسام بقوله : (كان أبو القاسم نجماً مطالعه الدول ، وبحراً عبابه القول والعمل ، وروضةً تقوت القلوب نفحاتها ، وتقيد الأبصار صفاتها وموصوفاتها ، أما العلماء فعيال عليه ، وأما العظماء فلعب في يديه ، وأما الأقلام فبعض شيعه وأنصاره ، وأما الأقاليم فبين إيراده وإصداره ، وأما مكانه من العلم الحديث والقديم ، وسبقه إلى غايتي المنثور والمنظوم ، وإقدامه على المهالك ، وتلاعبه بالأملاك والممالك ، فأشهر من الصباح ، وأسير من الرياح) [158] .

---

[140] – حاجي خليفة ، كشف الظنون ، 1443/2 .

[141] – البغدادي ، إيضاح المكنون ، 49/3 .

[142] – الداوودي ، طبقات المفسرين ، 156/1 ؛ البغدادي ، إيضاح المكنون ، 117/3 .

[143] – البغدادي ، إيضاح المكنون ، 430/3 .

[144] – البغدادي ، إيضاح المكنون ، 567/3 .

[145] – البغدادي ، إيضاح المكنون ، 304/4 .

[146] – البغدادي ، إيضاح المكنون ، 315/4 .

[147] – البغدادي ، هدية العارفين ، 308/1 .

[148] – ابن العديم ، بغية الطلب ، 2532/6 .

[149] – الداوودي ، طبقات المفسرين ، 156/1 .

[150] – الداوودي ، طبقات المفسرين ، 156/1 .

[151] – الداوودي ، طيقات المفسرين ، 156/1 .

[152] – ابن الجوزي ، المنتظم ، 185/15 .

[153] – ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 174/2 .

[154] – الباخرزي ، دمية القصر ، 115/1 .

[155] – ابن هبة الله ، المجموع اللفيف ، ص 27 .

[156] – إحسان عباس ، الوزير المغربي ، ص 92 .

[157] – ابن الابار ، أعتاب الكتاب ، ص 206 .

[158] – الذخيرة ، 475/8 .

لم يكن الوزير المغربي أول من كتب في السياسة وأخلاق الملوك وما ينبغي أن تكون عليه ، فقد سبقه في ذلك الكثير ، فقد أحصينا في كتاب الفهرست لابن النديم فقط أكثر من عشرين مؤلفاً في السياسة قبل الوزير المغربي [159] ، ولكن كتاب السياسة للوزير المغربي يمتاز بأنه انخرط في السياسة وتمرسها ، ومجمل الخطوط العامة لكتاب السياسة هي :

– ذكر أنه جعل هذه الرسالة في السياسة وعمل على اختصارها لأن المقصود بها (العظماء) [160] ، ووصف الساسة بأنهم (مخصوصون بِكَثْرَة الأشغال والتسرع إِلَى الضلال) [161] ، وذكر أن أفضل ما في السلطان محبة العلم والتشوق إلى استماعه لأنه يقربه إلى الرعية ، وقال إن غرضهم من العلم لأن فيه (استعراض للتجارب ، والاستعداد للنوائب ، إِذْ كَانَت أَخْبَار الْأَوَّلين تدل على آراء تجلت لَهُم أوائلها ، واحتجبت عَنْهُم عواقبها ، وَنحن بتأملنا مَا آلت إِلَيْهِ أُمُورهم ، وأثمر لَهُم تدبيرهم ، نعلم من آرائهم الأول وَالْآخر ، والهوادي والصدور) [162] .

– قسم السياسات إلى ثلاثة أنواع : سياسة الملك مع نفسه ، وسياسته مع خاصته ، وسياسته مع الرعية ، وجعلها بهذا التدرج ، لأن السائس ينبغي له أن يصلح نفسه أولاً ثم خاصته ثم رعيته [163] .

– ومن سياسته مع نفسه الاهتمام بطعامه وشرابه وبدنه ، وبخصوص الشرب فإنه نصح السائس إذا شرب أن لا يفرط في ذلك كي يزول عقله فينتهك الستر بينه وبين حاشيته ، وأن يتعاهد جسمه بالرياضة [164] ، ومنها أن يتقي الله فيما رفعه الله به وملّكه تدبير الرعية وفضلّه عليهم ، وأن يسير بالعدل فيهم لأنه من (مجازاة نعْمَة الله عَلَيْهِ الْعدْل فِيمَا ولاه ، وَالْإِحْسَان إِلَى من استرعاه ، والسهر لنومهم ، والتعب لحراستهم ، وَأَن لَا يظنّ أَن غَرَض الْوَالِي تَحْصِيل الرَّاحَة والدعة بل هُوَ أَحَق النَّاس بالتعب وأولاهم بِالنّصب) [165] ، وأن راحته الحقيقية في ما يحصل عليه من (جميل الذكر وجليل الذخر ، ثم في رضا سلطانه له إن كان فوقه) [166] .

---

[159] – ينظر : الفهرست ، الصفحات ، 59 ، 109 ، 115 ، 130 ، 131 ، 132 ، 134 ، 153 ، 163 ، 165 ، 210 ، 211 ، 243 ، 306 ، 319 ، 321 ، 328 ، 358 ، 378 .

[160] – رسالة في السياسة ، ص 39 .

[161] – رسالة في السياسة ، ص 39 .

[162] – رسالة في السياسة ، ص 39 .

[163] – رسالة في السياسة ، ص 39–40 .

[164] – رسالة في السياسة ، ص 41–45 .

[165] – رسالة في السياسة ، ص 45 .

[166] – رسالة في السياسة ، ص 45 .

ومن سياسة السائس مع نفسه أن يحذر (كل الحذر من تَأَخّر عمل يَوْم إِلَى غَد فَإِن لكل وَقت شغلا وَهَذَا الخلق من المدافعات بالمهمات أدهى الدَّوَاهِي الَّتِي تتَابع لَهَا الْخلَل وانهدمت لَهَا الدول) [167] .

ومنها أن يجتهد (أَن يَجْعَل طَاعَة الْخَاصَّة والعامة لَهُ طَاعَة محبَّة لَا طَاعَة رهبة ، فَإِذا أطاعوه محبَّة حرسوه ، وَإِذا أطاعوه رهبة احْتَاجَ إِلَى الِاحْتِرَاز مِنْهُم ، وشتان بَين حَالين إِحْدَاهمَا : تجْعَل النَّاس حراساً وَالْأُخْرَى تحوجه إِلَى الاحتراس مِنْهُم) [168] .

ومنها أن ينجز وعده ووعيده بالإحسان إلى المحسن والأخذ على المسيء والوفاء لهم في الجد والهزل ، كما ينبغي عليه أن يتصف بالعفة والحلم والسخاء والشجاعة ، كما ينبغي عليه أن يدرس أخبار الماضين ليتجنب أقبحها ويعتمد أصلحها وهذا باب عظيم من أبواب السياسة [169] .

– أما سياسته مع خاصته ، فينبغي على السائس إصلاح (أخلاقها وتهذيب آدابها لتقوى على حُقُوق الْخدمَة الَّتِي تلزمها ، وَإِذا كَانَ للرئيس فَهِيَ كالأعضاء للبدن فَمَتَى لم تكن الْأَعْضَاء على الْهَيْئَة الفاضلة أَو عرض لَهَا أَمر يثني كلهَا أَو بَعْضهَا عَن فعله الْأَصْلِيّ الموظف لَهُ وَقع الِاضْطِرَاب فِي جملَة الْبدن) [170] .

كما ينبغي عليه تفقد أحوالهم وحاجاتهم فهو (كالأستاذ فِي الصَّنْعَة الَّذِي يكل إِلَى تلاميذه مَا يصنعونه إِلَّا أَنه يراعيهم ليأمن خللاً يجْرِي فِيهِ ، وَهَذَا أصل عَظِيم يَنْبَغِي أَن يُوقف الْفِكر عَلَيْهِ والاهتمام بِهِ) [171] ، وأن يستعمل ذوي الخبرة والمهارة والعلم كل في فنه ، فصاحب الرسائل ينبغي أن يكون أميناً بليغاً في الكتابة ، وأما الحاجب فينبغي أن يكون طليق الوجه مقبول الشمائل (ليوصل من يصل بإكرام ، وَيصرف من لَا يُؤذن لَهُ بِرِفْق ولطف كَلَام ، وَيجب أَن يعرف طَبَقَات النَّاس كلهَا لينزلهم منازلها) [172] ، وأما جابي الأموال فينبغي أن يكون حسن المعاملة للرعية ومنصف ومنتصف لهم ، وأما قائد الجيش فينبغي أن يكون شجاعاً فارساً عارفاً بآلات الجندية وأحوال الجند ، وأما صاحب الشرطة عليه أن يكون (مهيب المنظر ، عبوس ، جليل فِي الْعُيُون ، غير ذِي دعابة مَعْرُوفَة ، يَأْخُذ بالاشتداد على أهل الريب ، ويتبعهم فِي مكانهم ، صَاحب ثِقَة مَعْرُوف بِالصّدقِ ، نَاصح أَمِين ، معتدل الطبائع ، قَلِيل العلق فِي الْمُعَامَلَات ، وَلَا يقيل عَثْرَة من

---

[167] – رسالة في السياسة ، ص 46 .

[168] – رسالة في السياسة ، ص 46 .

[169] – رسالة في السياسة ، ص 46–48 .

[170] – رسالة في السياسة ، ص 49 .

[171] – رسالة في السياسة ، ص 50 .

[172] – رسالة في السياسة ، ص 51–52 .

كذب بنهية فَإِن التَّدْبِير كُله على قَوْله) [173] ، وكذا الحاكم أن يكون عالماً عاقلاً غني النفس ، وأيضاً المحتسب : أمين ثقة عارف بوجوه المكاسب والغشوش ومصالح الرعية [174] .

– أما سياسة السائس مع العامة ، فهم بكثرتهم (يَتَّسِع الملك وَكلما كَثُرُوا كَانَ الملك أوسع وَإِصْلَاح العَامَّة عسير لكثرتهم وَقلة التَّمَكُّن من مداواة الفساد العَارِض فيهم فَإِن الملك عِند اضطرابهم إِن رام شِفَاء غيظه مِنْهُم لم يتم لَهُ ذَلِك إِلَّا بخراب بعض الْعِمَارَة ولبلوغ مَا زعزع من أَرْكَان السياسة فليجتهد فِي حفظ نظامهم وَأَن لَا يحوجوا إِلَى بُلُوغ هَذِه الْغَايَة فيهم) [175] .

فعليه أن يحسن سياسة الرعية بالحزم لأن الشدة والعنف لا تصلحهم وكذا اللين والمساهلة لا تجوز في معاملتهم فمنهم من تفسده الكرامة ومنهم من تفسده الإهانة ، لذا عليه التعرف على طبقاتهم فيبالغ في إكرام الأخيار منهم ، وقمع الأشرار ، وإفاضة العدل لينال كل منهم نصيبه ويقلع الظلم من أصوله [176] ، وأن يعطف على الضعفاء وترفيههم عن الكلف السلطانية من تسخير لهم أو استعانة بهم لأن (كثيراً من الْفِتَن تهيج بشكاية الضُّعَفَاء وحقد الْأَغْنِيَاء) [177] ، وعليه تتبع أهل الرشا من العمال والأصحاب ، لأن الرشا أس الجور والفساد [178] .

كما عليه أن يحسن جوار جيرانه من الممالك وأن يبالغ في بر رسلهم وأن يتصنع لهم في تفخيم مجلسه ومظهره وزينته ، وأن لا يطيل إقامتهم عنده وأن يمنعهم من مخالطة الخاصة والعامة إلا بإذنه ، وأن يوكل أهل الأخبار من ثقته وينفق عليهم الأموال الجزيلة ، ليتعرف على وليه وعدوه وما يتجدد لهم في ذلك ، فيأخذ في ذلك أهبته [179] .

– وقد ختم الوزير المغربي رسالته في السياسة بوصية الخليفة أبي بكر الصديق (τ) لقائده يزيد بن أبي سفيان [180] عندما أنفذه إلى الشام وقال عنها : (فَإِنَّهَا من البلاغة البديعة والوصايا العجيبة) [181] .

المبحث الثالث : الوزير المغربي بين حياته السياسية وكتابه في السياسة

---

[173] – رسالة في السياسة ، ص 52 .

[174] – رسالة في السياسة ، ص 52 .

[175] – رسالة في السياسة ، ص 54 .

[176] – رسالة في السياسة ، ص 54–55 .

[177] – رسالة في السياسة ، ص 56 .

[178] – رسالة في السياسة ، ص 57 .

[179] – رسالة في السياسة ، ص 57–58 .

[180] – هو يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية القرشي أسلم عام الفتح وشهد حنين مع النبي (ﷺ) وكان أحد أمراء الجيوش التي أرسلها أبو بك الصديق إلى الشام وتوفي هناك في طاعون عمواس سنة 18 هـ/639 م ، ينظر : ابن سعد ، الطبقات ، 7/284–285 .

[181] – رسالة في السياسة ، ص 59 .

بدأ الوزير المغربي حياته السياسية في حدود سنة 390 هـ/999 م عندما كان مع أبيه في بلاط الخليفة الحاكم الفاطمي وكان من جلسائه ، وكان عمره إذ ذاك حوالي عشرين سنة ، ولما كانت وفاته سنة 418 هـ/1027 م فهذا يعني أنه قضى حوالي ثمان وعشرين سنة يمارس السياسة أو يناضل من أجلها ، فعندما ذكر بأن الساسة مخصوصون بكثرة الأشغال فهو الخبير بذلك لما يتطلبه تسيير أمور البلاد والعباد .

أما وصفه لهم بالتسرع إلى الضلال فهو يقصد بالدرجة الأولى الخليفة الحاكم الفاطمي عندما أوقع بعائلة المغربي ونكبهم ، وهنا يبتعد الوزير المغربي عن الواقعية عندما يُشبّه ما حدث لهم بما حدث للحسين بن علي (ט) في الطّف ، فشتان ما بين من خرج من أجل إحقاق الحق والمثل السامي وبين من ذهب ضحية الدسائس فكل كان يحاول النيل من خصمه حتى أوقع بهم الخليفة الفاطمي جميعاً .

إلا أنه يقترب من الواقعية عندما يتكلم عن طعام الحاكم وشرابه ، فأغلب الحكام الذين عاشرهم كان همهم الطعام والشراب والإفراط في ذلك لذا ينصحهم بالاعتدال للمحافظة على صحة الجسم ، كما أنه أكثر واقعية عندما ذكر شراب الحكام فهو ينصحهم بتناول كأساً أو اثنين كي لا يفقد عقله وتقل هيبته ، يقول إحسان عباس : إنه لو نظر إلى الأمر من زاويته المثالية لنصح الساسة بعدم الشرب لكنه يخالط حكام يشربون [182] .

وعند كلامه عن علاقة السائس بما هو فوقه ذكر أنه ينبغي له أن يرضي ما فوقه ، ثم قال : (ولا رتبة أبهى من رتبة العز ، ولا زينة أجل من زينة المقتدر) [183] ، فهو هنا يعبر عما في نفسه من الطموح بحث نراه دائماً ينظر إلى الأعلى ، وقد أبان عن طموحه هذا عند خطبته أمام الخليفة الحاكم الفاطمي ، وكذلك في تنقله السريع وعدم قناعته بما لديه وبما ناله من منصب ، فعندما وزر لنصر الدولة بن مروان صاحب ديار بكر نراه يغادر من غير استئذان بل بحيلة يصطنعها من أجل أن ينال المرتبة الأعلى في بغداد ، وقد عرّض به شيخ زاهد عندما قال له : أيها الشيخ لو صحبتنا لاستفدت منا واستفدنا منك ، فقال له :

إذا شئت أن تحيا غنياً فلا تكن بمنزلة إلا رضيت بدونها

فما كان منه إلا أن قال : اللّهم اغننا كما أغنيت هذا الشيخ [184] .

بل أنه نظر إلى حكام عصره نظرة استصغار على الرغم من أنه كان يعمل جاهداً إلى العمل عندهم ، وقد عمل عند العديد منهم وشاركهم في الحكم ، وذلك عندما قال :

---

[182] – الوزير المغربي ، ص 105 .

[183]– كتاب السياسة ، ص 45 .

[184] – سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص 336 ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، 2299/5 .

أرى الناس في الدنيا كراعٍ تنكرت مراعيه حتى ليس فيهن مرتع
فماء بلا مرعى ومرعى بغير ما وحيث يرى ماء ومرعى فمسبع [185]

والذي ينبغي عليه حسب نظرته أعلاه اعتزالهم .

وعند حديثه عن علاقة السائس برعيته وخاصته ذكر أنه ينبغي أن يجتهد أن تكون طاعتهم له طاعة محبة لا طاعة رهبة ، هو هنا ابتعد عن هذا المبدأ السامي الذي ينبغي أن يكون عليه الحكام ، فعندما احتاج نصر الدولة بن مروان إلى المال نصحه بمصادرة بعض رجال حاشيته فكان رده عليه : (يا هذا إنما نصبتك وزيراً لتعطيني وتعطي أصحابي بعمارة بلادي وتوفير أموالي) [186] .

وعند كلامه على العفة ، ذكر أنه ينبغي للسائس التنزه عن المكاسب التي فضلتها الرعية ويجتهد أن تكون وجوه دخله على جلالة قدره لا يهتك فيها للدين ولا المروءة ، ونراه هنا أخلّ بهذا المبدأ السامي الجليل إلى حد بعيد ، فهو من أشار على أبي الفتوح العلوي صاحب مكة بأخذ أموال الكعبة ، وأشار عليه أيضاً بمصادرة تركة رجل ميسور أوصى له بجدة ، وهو من ساوم الأتراك ما يتقاضونه عندما كان وزيراً في بغداد ، وهو من حمل الأموال عند مغادرته ديار بكر في وزارته الأولى هناك ، فغض نصر الدولة بن مروان الطرف عنه .

وعند كلامه عن الحلم ، ذكر أن السائس ينبغي له تأخير عقوبة المقصر وأن تكون العقوبة بموقع السياسة لا التشفي والعدل لا التعدي ، نراه هنا يخل بهذا المبدأ أيضاً ، فهو من أشار على حسان بن المفرج الطائي بقتل القائد الفاطمي يارختكين وهو أسير ، فهل يصح قتل الأسرى أم أن قتله كان بدافع التشفي من الخليفة الحاكم الفاطمي .

وعند كلامه عن الشجاعة ذكر أنه لا يجوز أن يكون السائس الجبان ضابطاً لأمره ولا حارساً لرعيته ، فيما نراه حين هاجت فتنة الأتراك في بغداد يخرج متخفياً بثياب رثة وقد غطى وجهه كي لا يُعرف من بين العامة .

وعند كلامه عن الخاصة ذكر أن السائس ينبغي له يتفقد خاصته ليتلطف في تثبيت صلاحهم ونفي فسادهم وأن لا يعتقد أنه استغنى أو استكفى بل يجب مراعاته كالأستاذ في الصنعة الذي يكل إلى تلاميذه ما يصنعونه إلا أنه يراعيهم ليأمن خللاً يجري فيه ، وهو هنا عندما استوزر في بغداد ، قال مهيار الديلمي : تعظّم وتكبّر ، فرهبه الناس ، وانقبضت عن لقائه .

---

[185] – الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، 124/13 .

[186] – ابن العديم ، بغية الطلب ، 1134/3 .

ومما ذكره عن الخاصة قال إن السائس ينبغي أن يستخدم خواصه إلى المخالصة والمحبة ، فيما عمل هو عندما وزر في بغداد على زرع الفتنة بين خاصته ، وأغرى رجال الدولة بعضهم ببعض كما قال المقريزي .

وعند كلامه عن الحاكم قال : ينبغي له أن يكون عالماً عاقلاً مأمون الباطن ، وبخصوص الأخيرة فإن الوزير المغربي استخدم الحلية أكثر من مرة لاسيما مع نصر الدولة بن مروان وقرواش بن مقلد العقيلي ، فمثلاً : عندما وزر لقرواش واستوحش منه وأراد الخروج عمل حيلة إذ زين لقرواش مصاهرة نصر الدولة بن مروان صاحب ديار بكر وأنه سيكون السفير في ذلك وكان في باطنه غير ذلك .

وفي ختام رسالته السياسية رأى أن يختمها بوصية أبي بكر الصديق (τ) لقائده يزيد بن أبي سفيان ، فقد قال عنها إن فيها من البلاغة البديعة والوصايا العجيبة ، فجاء فيها : واصلح نفسك يصلح لك الناس فإن الأمير إنما يتقرب إليه بمثل فعله ، وعند استعراضنا لحياته السياسية في المبحث الأول نرى أن معظم أعماله كانت قائمة على الحيلة والجرأة ، حتى وصفه البعض بخبث الباطن [187] ، وقال عنه ابن العديم : (وفضائله جمة ، لكنه كان جسوراً مهوراً ، سيء التدبير ، متكبراً) [188] ، وعلى الرغم من هذا النقد اللاذع بحقه إلاّ أن في بعض سيرته ما يشير إلى ذلك .

وقد حاول إحسان عباس أن يبرر سلوكه السياسي غير المستقر بقوله : إن الرجل كان شديد الذكاء ، وأن ذكاءه أوصله إلى النضج المبكر ، فظهرت لديه عقدة التفوق ، وقد وجه ذلك الذكاء أولاً إلى التعمق في العلم والأدب فلما فاق أقرانه في ذلك تحولت عقدة التفوق عنده لإرضاء طموحه إلى الشهرة [189] ، ونحن نتفق مع هذا الرأي ونضيف إلى أن أول تجربة له نحو الشهرة كانت في مصر واندفع بقوة للحصول على أعلى المراتب فيها إلاّ أنه مُني بانتكاسة كبيرة في حياته السياسية عندما أسقط الخليفة الحاكم الفاطمي عائلة المغربي قتلاً وتشريداً ، وإذا صحت رواية الفارقي بأنه فرّ من زنزانة السجن ولم يفلح أحد غيره في الفرار منها فإن ذلك الحدث ترك آثاراً نفسية سيئة عليه جعلته يوجه جلّ ذكاءه ودهاءه ومواهبه نحو الانتقام مما أفقده البصيرة وفشلت محاولاته ضد الدولة الفاطمية .

ويبدو أن ذلك الأثر النفسي جعله لا يطمئن إلى أحد من الساسة حوله فظاهره معهم وباطنه قلق خائف من أن يلقى نفس ما لقاه في مصر ، ولهذا نراه في بغداد والموصل وديار بكر سريع

---

[187] – ابن العديم ، بغية الطلب ، 2543/6 ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 174/2 .

[188] – بغية الطلب ، 2532/6 .

[189] – الوزير المغربي ، ص 85 .

التحول سريع التغير لا يفصح عما يريد يعمل قبل أن يتكلم ، وقد رافقه هذا السلوك حتى بعد موته .

الخاتمة

كان أصل الوزير أبو القاسم الحسين بن علي المغربي من العراق ، وعمل جده وأبوه في بغداد ، ثم غادر الأخير إلى الشام وعمل في حلب حيث الدولة الحمدانية ، وعندما فتح الفاطميون مصر عمل أبوه عند الخليفة العزيز الفاطمي ولم يوفق فيما أوكله إليه فنقم عليه ، ثم نراه من المقربين من الخليفة الحاكم الفاطمي مع ابنه أبي القاسم وبقيا في بلاطه حتى نكبهم ففر الوزير أبي القاسم المغربي إلى الرملة ودبر مؤامرة للقضاء على الدولة الفاطمية إلا أنه فشل في ذلك فاضطر للهرب إلى العراق ، ووزر للحمدانيين في الموصل مرتين ثم لبني مروان الكردي في ميافارقين وديار بكر مرتين ، كما وزر للبويهيين في بغداد وكانت وفاته سنة 418 هـ/ 1027 م .

كان الوزير المغربي عالماً شاعراً ناثراً وكتب في مختلف العلوم منها في السياسة ، وهي رسالة وجهها إلى حكام عصره ، وعند مقارنة ما ورد فيها من نصائح وإرشادات مع حياته العملية السياسية نجده وُفِقَ في بعضها فيما أخفق في الكثير منها مما أوقعه في تناقض بين ما كتبه وما كان هو عليه أثناء حياته السياسية .